دور الإمام محمد بن سعود في تأسيس الدولة السعودية

(1139-1179هـ/1727-1765م)

أ.د. عبدالرحمن بن سعد العرابي

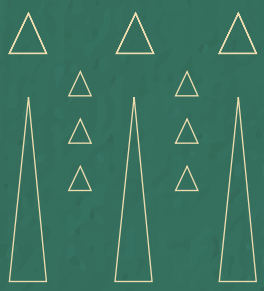

شكل العام 1139هـ/1727م نقطة تحول مفصلية في تاريخ الدرعية فقد كانت الدرعية آنذاك حاضرة من حواضر إقليم اليمامة وطبيعة حكمها عرفاً كان سائداً في الإقليم فيما يمكن أن نسميه بـ (المدينة الدولة)أو (الإمارة الدولة (City-State)) وهو نوع من الحكم ساد في مناطق عدة من العالم وعبر أزمنة تاريخية مختلفة، فقد عرفته أوروبا في (المدن الدولة) الإيطالية قبل توحيد إيطاليا في القرن التاسع عشر الميلادي مثل البندقية وجنوة وكانتا تسميان جمهوريتان ولهما نفوذ كبير في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانتا تسيطران على موانٍ كبرى فيه كما كانتا ذواتي نفوذ في نقل تجارة الشرق المارة عبر الموانيء المصرية إلى أوروبا إبان العصور الوسطى وبدايات التاريخ الحديث عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بعد اكتشاف البرتغاليون والإسبان لطرق تجارية جديدة غير الطرق التقليدية والتي كانت تسيطر عليها ممالك إسلامية وتجار مسلمون .

كما عرفت الحضارة الإغريقية القديمة ذلك النوع من الحكم (المدينة الدولة) في كثير من مدنها الكبرى مثل أثينا واسبرطة وكورنثا وسرقوسة وآرغوس، وكان لكل واحدة منهن نفوذ سياسي وحضاري كبير لا زال حتى يومنا هذا ذا حضور في الثقافة الأوروبية.

كان حكم الدرعية في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي يتم عُرفاً تتناقله أسرتا آل مقرن وأبناء عمومتهم آل وطبان وكلاهما من المردة من بني حنيفة إحدى أكبر القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية. وكان تولي الحكم في الدرعية وراثياً منذ تأسيسها على يد الجد الأكبر الأمير مانع المريدي في عام 850 هـ /1446م. في ذلك العام قَدِمَ مانع من بلدته الدرعية في شرق شبه الجزيرة العربية بعد أن راسل قريباً له اسمه ابن درع وهو صاحب نفوذ في إقليم اليمامة فاستوطن مانع وأسرته وادياً منحه إياه ابن درع ويضم المُليبيد وغَصِيبة وهو المكان الذي أصبح يسمى بعد ذلك بالدرعية نسبة للبلدة القديمة التي كان يسكنها مانع وأسرته في شرق شبه الجزيرة العربية.

ولم يكن تولي الحكم في الدرعية مختلفاً عن بقية بلدات إقليم اليمامة ونجد، مثل العيينة وحريملاء والرياض التي كانت يتوارثها زعامات عربية، وهي زعامات تنتمي لقبائل عربية خالصة ومن أكبرها بنو حنيفة التي تنتسب لها أسرة آل سعود.

وكان الوصول إلى السلطة والحكم في تلك البلدات والحواضر يتم بطرق مختلفة إما وراثيًّا وإما بالتغلب، وهو أمر مألوف وسائد آنذاك. وكان حكام تلك البلدات يفرضون سيطرتهم وهيمنتهم على البلدات والقرى والقبائل المجاورة لهم، وهو ما أدى إلى صراع مستمر بينهم سعياً لتأسيس نفوذ واسع يؤدي إلى تحول صيغة حكمهم من مدينة إلى دولة مترامية الأطراف، وقد امتلأت بطون المصادر التاريخية لتلك الفترة - مثل ابن بشر وابن غنام وابن عيسى وابن يوسف - بالحديث عن تفاصيل ذلك التاريخ.

في عام 1139هـ/1727م تولى الإمام محمد بن سعود الحفيد السابع في سلسلة النسب للأمير مانع المريدي حكم الدرعية، وبدأ ما عرف في التاريخ بتأسيس الدولة السعودية الأولى، وكان قد سبق توليه حكم الدرعية بعامين نهاية حكم والده الأمير سعود بن محمد بن مقرن الذي امتد حكمه قرابة خمسة أعوام ما بين الأعوام (1132-1137/ هـ 1720-1725م) شهدت فيه إمارة الدرعية أحداثاً نقلتها من صيغة (المدينة الدولة) إلى دولة صاحبة نفوذ في وسط شبة الجزيرة العربية. من ذلك استقلال آل مقرن الفرع الذي ينتمي له آل سعود بحكم الدرعية بعد أن كانوا يتناوبونها مع أبناء عمومتهم آل وطبان، وبذلك بدأ نفوذ آل مقرن يتعاظم في وسط شبه جزيرة العرب كما حدث في تصدي الدرعية إبان حكم الأمير سعود بن محمد لحملة بني خالد بقيادة سعدون آل غرير بعد أن عاث فساداً في بعض بلدات العارض ووصوله بقواته إلى الدرعية، ولكن تمكنت قوة الدرعية من صده هو وقواته وعودة المعتدين خاسرين دون أن يحققوا أي انتصار على الدرعية وأهلها، وكان ذلك في العام الثاني مباشرة لتولي الأمير سعود بن محمد الحكم أي في عام 1133هـ/1721م. وكمؤشر على تنامي نفوذ الدرعية ما قام به الأمير سعود بن محمد بقيادة قوة من أهل الدرعية لمساندة أمير العيينة عبدالله بن محمد بن معمر في حملته ضد حريملاء في عام 1137هـ /1724م . كما تحسنت خلال حكم الأمير سعود بن محمد الحياة العلمية في الدرعية فبرزت أسماء علماء مرموقين في نجد كالشيخ عبدالله بن عيسى.

طوال الخمس سنوات من حكم الأمير سعود بن محمد شهدت الدرعية استقراراً في الحكم بما يدلل على قوة شخصية الأمير سعود وقدرته الإدارية الحازمة في ضبط الأمور بما لم تشهده الدرعية من قبل حين كانت النزاعات بين أسرها تتناوبها بما يؤثر على مكانتها وبما يعكر صفو استقرارها. كما أن مكانة الدرعية تزايدت لتصبح واحدة من أكبر بلدات نجد نفوذاً وقوة وهو ما مهد الطريق للإمام محمد بن سعود لنقلها إلى مكانة أكبر بقوة وفاعلية أعظم ومرحلة مفصلية في تاريخها وتاريخ آل سعود بتأسيس دولة مترامية الأطراف أعادت الوهج السياسي والعلمي لشبه جزيرة العرب الذي فقدته منذ انتقال العاصمة السياسية لدولة الخلافة من المدينة المنورة إلى العراق فالشام فالعراق ثم تغلب العناصر غير العربية على الحكم وإقصاء العرب وكما في فترات حكم العباسيين الثاني وحكم المماليك ومن جاء بعدهم.

تولى الإمام محمد الحكم في الدرعية مؤسساً الدولة السعودية الأولى وهو في سن التاسعة والأربعين من عمره، وكان أكبر أبناء الأمير سعود بن محمد مقرن الذكور الأربعة محمد وثنيان ومشاري وفرحان. وسبق للأمير محمد أن تولى مهام عدة خلال فترة حكم أبيه للدرعية فيما كان يعرف بين أسر حكام نجد تأهيل أبنائهم للحكم وانتقاله لهم بسلاسة ودون صعوبات. وقد أوردت المصادر التاريخية لتلك الفترة مشاركة الأمير محمد في مهام والده السياسية والحربية وهو ما أكسبه قدرة وكفاءة إدارية وسياسية واحترام وتقدير أهالي الدرعية. ولعل في الحوادث التي تلت وفاة الأمير سعود بن محمد بن مقرن وتولي زيد بن مرخان حكم الدرعية وخروج مقرن بن محمد بن مقرن عليه وانتزاع الإمارة منه وسعيه للغدر بزيد ووقوف الإمام محمد بن سعود إلى جانب زيد ومقتل مقرن وإعادة زيد للحكم في بدء عام 1139هـ/1727م خير مثال على وفاء الأمير

محمد وعدم قبوله بالضيم وسلب الحقوق، وهو ما جعل أهالي ووجهاء وأعيان الدرعية يختارونه لحكمها خلفاً لزيد بن مرخان.

لم تكن الحالة السياسية لمنطقة نجد عند تولي الإمام محمد بن سعود الحكم في الدولة السعودية الأولى تختلف كثيراً عما كان سائداً في المجتمعات العربية التقليدية من مؤهلات الزعامة والرياسة، والتي من أهمها أصالة النسب والشجاعة والكرم. ولقد كان أمراء البلدات النجدية ينتمون إلى قبائل عربية خالصة، وكان الصراع على السلطة بين أمراء تلك البلدات سبباً في حالات التفكك السياسي لتصبح كل بلدة مستقلة بذاتها وتتباين علاقاتها مع جاراتها ما بين حروب وأحلاف. وقد انعكست تلك الحالة على علاقة القبائل النجدية بعضها ببعض أو علاقاتها بأمراء وحكام البلدات النجدية، وكان للقبائل دور في ترجيح كفة ميزان قوة بلدة ضد أخرى حتى غدت كما في المثل المعروف " نجد لمن طالت قناته".

امتد حكم الإمام محمد بن سعود للدرعية أربعين عاماً من 1139هـ/1727م حتى وفاته في عام 1179هـ/1765م شهدت فيه الدرعية تطورات وأحداثاً مفصلية نقلتها من صيغة (المدينة الدولة) إلى الدولة (The State) صاحبة النفوذ الأكبر في كامل شبه الجزيرة العربية بسبب السياسات الداخلية والخارجية التي اتخذها الإمام محمد طوال فترة حكمه والتي أصبحت الأسس لتوسع الدولة في عهود خلفائه من آل سعود. فقد سعى الإمام محمد بن سعود في بداية حكمه إلى تجاوز محنة الخلاف الداخلي الذي قام بين زيد بن مرخان ومقرن بن محمد على الحكم بهدف توطيد الاستقرار داخل الدرعية ولإعادة اللحمة بين المتنازعين عن الوقوف مع طرف ضد آخر وكان ذلك نابعاً مما حباه الله من حسن سيرة ومعاملة ووفاء وسداد رأي وحسن تدبير. كما أن الإمام محمداً سعى إلى استثمار ما بدأه والده الأمير سعود بن محمد من رعاية علمية وترسيخ لمكانة الدرعية بين البلدات النجدية الأخرى ولا سيما المجاورة لها مثل حريملاء والرياض والعيينة.

حين بدأ الإمام محمد بن سعود مشروعه التأسيسي الوحدوي أراد إقامة دولة عربية خالصة أساسها الإسلام المعتدل تعيد المكانة لشبه الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام بعيداً عن الولاءات والتبعية لنفوذ العناصر غير العربية خاصة أن الدولة الكبرى آنذاك والمسيطرة على معظم الأقاليم والبلاد العربية كانت الدولة العثمانية، التركية الخالصة في توجهاتها وسياساتها وطبيعة حكمها فكل سلاطينها وحكام ولاياتها من العنصر التركي، وقد أبعدت أبناء العرب عن مراكز القوى والسلطة حتى من الحكم في أقاليمهم ومناطقهم. ولقد كان لتلك الدولة اليد الطولى في الهيمنة على عدد من حكام شبه الجزيرة العربية وإدارة شؤونها، هذا في الوقت الذي كانت هي ذاتها تعيش أسوأ مراحل حياتها في القرن 12 هـ/18م، فالفساد منتشر في كل مفاصلها السياسية والإدارية والعسكرية ومراكز القوى فيها تتنازع قراراتها داخل العاصمة إسطنبول من نساء القصر السلطاني وأغوات النساء وقادة الإنكشارية والصدور العظام، وانتشار الجهل وسيطرة الخرافات والمعتقدات الخاطئة في أرجائها بما في ذلك وجود ما عرف بـ" منجم باشي" كأحد أكبر موظفي القصر السلطاني. وكانت الأقاليم العربية التي تحتلها الدولة العثمانية أكثرها تضرراً فلم تكن تهتم الحكومة المركزية في إسطنبول بتنميتها وتطويرها، حيث لم تشهد تلك الأقاليم

أي حركة تعليمية أو صحية أو خدماتية كالتي كانت تعيشها أوروبا، بل إنها -أي الدولة العثمانية- أسهمت أكثر في انتشار الخرافات والجهل بتشجيعها الفرق الصوفية المنحرفة وبناء الزوايا والأضرحة. وقد امتلأت المصادر والمراجع التاريخية سواء غربية أو تركية أو عربية -مثل الكتاب الموسوعي للبروفيسور الأمريكي ستانفورد شو وكتاب الفرنسي روبير مونتران وكتاب التركي يلماز أوزتونا وكتاب العربي محمد فريد بك المحامي وغيرهم كثير- بالحديث المُفصَّل عما كانت عليه أحوال الدولة العثمانية من فساد وتدهور في كل مفاصلها الإدارية والسياسية وأقاليمها المختلفة.

كما سعى الإمام محمد بن سعود إلى جعل دولته ذات سيادة وحرة بعيدة عن ولاءات وتبعية لأي من القوى الإقليمية في شبه الجزيرة العربية، وأن تكون عاصمته الدرعية ذات قرار سيادي نابع من مصالحها الذاتية وبما يحقق ازدهار شعبها. وقراءة فاحصة لما ذكرته المصادر المعاصرة آنذاك عن الأحداث التي تمت في منطقة نجد يوضح بجلاء سعي قوى إقليمية للسيطرة على الدرعية كما حدث في حملات بني خالد عريعر بن دجين الذي كان له نفوذ كبير على عدد من حكام البلدات النجدية ومنها العيينة المجاورة للدرعية، وكما حدث مع حكام نجران الذين سعوا لمهاجمة الدرعية غير أن كليهما (زعيم بني خالد وحكام نجران) لم يتمكنوا من تحقيق شيء كما سنوضح في أسطر قادمة.

في الشأن الداخلي اتبع الإمام محمد بن سعود سياسات تتراوح ما بين السلمية والحربية لتأمين الاستقرار والأمن داخل الدرعية وما حولها، وتباينت سياساته تلك مع حكام البلدات النجدية المجاورة بحسب ظروف وتطورات أوضاعها ومع بني خالد حكام شرق شبه الجزيرة العربية الذين كان لهم نفوذ كبير على عدد من حكام البلدات النجدية ولا سيما مع حكام العيينة. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر مساندة الإمام محمد بن سعود لأمير الرياض دهام بن دواس في عام 1151هـ/1737م حين تمردت عليه بلدته وحاصرته في قصره فأرسل إليه الإمام محمد أخاه مشاري بقوة تمكنت من فك حصار دهام وتأمين مركزه في إمارة الرياض وليصبح أحد حكام نجد البارزين .

كانت تلك السياسات الداخلية والخارجية فضلاً عن كونها تدلل على قدرة وكفاءة إدارة الإمام محمد بن سعود فقد جعلت الدرعية مركزاً سياسيّاً مهمّاً في وسط شبه الجزيرة العربية وبمكانة رفيعة بين حكامها، وكان توحيد الإمام محمد لمناطقها الداخلية المُليبيد وغَصيبه وبناء سمحان دور في جعل الدرعية مركزاً إداريّاً واعداً لما ستراه المنطقة بعد ذلك من تطورات وأحداث مفصلية.

في تلك المرحلة التي كان الإمام محمد يواصل أعماله التأسيسية لم ينس الاهتمام بالجوانب العلمية داخل دولته وسعيه لجعل الدرعية مركزاً علميّاً متميزاً وإكمال ما بدأه والده من رعاية للعلماء وطلبة العلم، حيث برز عدد من علماء الدرعية ضمن كوكبة علماء نجد ومنهم الشيخ قاسم بن عيسى والشيخ عبدالوهاب بن عبدالله بن عيسى والشيخ عبدالله بن سويلم مما جعلها في مكانة مساوية للمراكز العلمية التي كانت قائمة في نجد مثل العيينة وأشيقر والمجمعة التي كانت تركز على تدريس المذهب الحنبلي وهو المذهب السائد بين أهالي نجد لبساطته وقربه من تلبية احتياجاتهم الروحية.

في تلك الأثناء ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب في حريملاء ثم العيينة يدعو إلى منهج السلف الصالح والدين المعتدل بعيداً عن الخرافات، كما كان يدعو إلى اتباع التوحيد الخالص لله وحده لا شريك له متبعاً المذهب الحنبلي. وقد وجدت دعوته الاصلاحية تلك صدى إيجابيّاً في منطقة نجد فأخذ الوافدون يتكاثرون عليه في حريملاء ثم العيينة مما سبب انزعاجاً لحاكم الأحساء سيلمان الخالدي الذي كانت له سلطةً ونفوذ على حكام العيينة التي كان يحكمها آنذاك عثمان بن معمر. أمر سليمان ابن معمر بإخراج الشيخ محمد بن عبدالوهاب من العيينة. ولأن الدرعية بمنزلة المركز السياسي والعلمي في وسط شبه الجزيرة العربية توجه الشيخ محمد إلى الدرعية لحمايته ودعمه وتوفير الملاذ الآمن له، فأقام بها ووجد النصرة والمؤازرة الفاعلة من الإمام محمد بن سعود ومن أسرة آل سعود لتصبح الدرعية مركز نشر الدعوة الإصلاحية ويجد فيها ابن عبدالوهاب البيئة الحاضنة لتعزيز دعوته في ظل حماية كاملة وليصبح داعيةً وواحداً من رجالات دولة الإمام محمد الذين عملوا معه من السياسيين والعسكريين.

جاء لجوء الشيخ محمد بن عبدالوهاب للدولة السعودية ونصرة الإمام محمد بن سعود له في مرحلة من مراحل تطور الدولة حين بدأ يتزايد نفوذ الدرعية ويكمل الإمام محمد بن سعود مشروعه التأسيسي بتوحيد منطقة نجد وبلداتها في وحدة سياسية عربية مسلمة قوامها الدين الحنيف والمنهج الإسلامي القويم بعيداً عن الولاءات والانتماءات العرقية والمذهبية، وسيطرة الخرافات والبدع. كما تحولت الدرعية إلى مركز علمي في كامل شبه الجزيرة العربية ووجهة أمل لتوحيد بلدات نجد سياسيّاً حين قام الإمام محمد بن سعود بدعوة حكام تلك البلدات إلى الانضمام للكيان السياسي الذي كان قد أسس بنيانه، وبالفعل تجاوب عدد من أمراء البلدات النجدية فانضمت العيينة وحاكمها عثمان بن معمر والذى اصبح بعد ذلك أحد قادة الدولة في حملاتها العسكرية التوحيدية، كما انضمت حريملاء وحاكمها محمد بن مبارك، ومنفوحة والعمارية.

تحولت الدرعية إلى عاصمة لكيان سياسي مؤثر سياسيّاً وعلميّاً بقدر ما جذب لها مؤيدين وولاء بلدات نجدية بقدر ما خلق لها عداوات محلية وخارجية من حكام داخل شبه جزيرة العرب وخارجها، وكان من أشد أعدائها في نجد أمير الرياض دهام بن دواس الذي أنكر جميل الإمام محمد بن سعود بمساندته له حين ثارت عليه الرياض سابقاً في عام 1152هـ/1738م. وكان دهام يرى أن ما يقوم به الإمام محمد وتحول الدرعية إلى عاصمة لكيان سياسي مؤثر تهديداً لمركزه في إمارة الرياض، فاخذ يشن حملات عسكرية ضد مناطق انضمت وأصبحت جزءاً من دولة الإمام محمد، مثل منفوحة. وقد بلغ عدد المحاولات التي قام بها دهام ضد الدولة السعودية ومحاربته لها إلى سبع عشرة محاولة أخفق فيها في تحقيق أي هدف يثني الدولة الجديدة عن إكمال مهمتها في توحيد منطقة نجد والانتقال إلى أطوارٍ أوسع وأشمل في كامل شبه جزيرة العرب.

كذلك واجهت الدرعية مواصلة حكام الأحساء بني خالد وزعيمهم عريعر بن دجين عداءهم لها منذ أن بدأت تباشير تأسيس الإمام محمد بن سعود لدولة مؤثرة في شبه جزيرة العرب، حيث قام عريعر في العام 1172هـ/1758م بمهاجمة الدرعية وكان الإمام محمد قد أقام حولها سوراً

محكماً عزز به مناعة عاصمته وحقق الهدف من انشائه حين أخفقت محاولة عريعر فلم يتمكن من اقتحام الدرعية ومَنيت قواته بخسائر وقتلى في أعدادها فاضطر إلى الانسحاب ولم يحقق شيئاً يذكر. كما قام عريعر مرة أخرى بشن حملة في عام 1178هـ /1764م ولكنها كانت كسابقتها فاشلة ولم تحقق شيئاً. وكان ذلك سبباً في زيادة هيبة الدرعية وزعيمها الإمام محمد بن سعود بين أمراء نجد وبلداتها، فقام عدد منهم بمصالحة الدرعية ودفع غرامات مالية لها.

كان السور الذي أقامه الإمام محمد بن سعود والذي صد هجمات بني خالد مكوناً من سورين حصينين ولهما أبراج منيعة، وقد شارك أهالي الدرعية في بنائه. وكانت مواد البناء للسورين والأبراج من المواد المستخدمة آنذاك في بناء أسوار البلدات النجدية من الحجر الرسوبي غير المنتظم ومن الطين والأحجار الصغيرة التي كانت قادرة على التصدي لنيران وقوة المَدافِع.

وفي سبيل استكمال مشروعة السياسي التوحيدي قام الإمام محمد بن سعود بقيادة حملات ضد البلدات النجدية وحكامها الذين كانوا يتأرجحون في ولائهم لدولته، كما صد هجمات القوى الخارجية المناوئة للدرعية مثل حكام الأحساء وحكام نجران وحملة رئيسهم حسن بن هبة الله في عام 1178هـ /1764م . وكان الإمام محمد يهدف من وراء تلك الحملات إلى أن تكون الولاءات فقط لمركز واحد وعاصمة قوية ودولة مهابة الجانب، فتمكن من إخضاع منفوحة والعيينة وحريملاء والخرج وضرماء وثادق، ودانت له القويعية وشقراء بالولاء دون قتال، كما تمكن من إخضاع القبائل النجدية لسلطة الدرعية والقبول بالولاء لحكامها واستتباب الأمن في مناطقهم.

ولم ينس الإمام محمد وهو يخوض غمار تلك الحملات مجتمع الدرعية الذي كان خلال فترة حكمه مثله مثل بقية مجتمعات البلدات النجدية مكوناً من شريحتين رئيسيتين هما سكان الحاضرة وأهل البادية، وكان سكان الحاضرة يعملون في مهنتين أساسيتين هما التجارة والزراعة، ولهذا سعى الإمام محمد طوال فترة حكمه إلى تأمين طرق التجارة من عاصمته إلى المناطق المجاورة لها وبينها وبين بقية المناطق في شبه الجزيرة العربية، كما قام بتشجيع الزراعة وتَمكِين المزارعين من الاستفادة القصوى من أراضيهم، فتحولت الدرعية وهي على ضفاف وادي حنيفة إلى واحة زراعية تمد نفسها والبلدات المجاورة لها من منتوجاتها الزراعية المختلفة. وكان أهل البادية مع تنقلهم المستمر فإن تبعيتهم لحكم الدرعية جعلتهم أهل إنتاج حيث كانوا يزودون البلدات النجدية بما تحتاجه من لحوم الجمال والخراف وألبانها وسمنها ويتبادلون مع أهل تلك البلدات البيع والشراء بأخذ ما يحتاجون إليه من أرزاق لحياتهم في البادية. فتحولت الدرعية بذلك إلى محطة تجارية آمنة في وسط شبه الجزيرة العربية.

وكان للتعليم نصيب من اهتمام الإمام محمد بن سعود استكمالاً لما شهدته الدرعية في أثناء حكم والده الأمير سعود بن محمد بن مقرن، فقد شهدت الدرعية تعليماً يشبه ما عرفته مثيلاتها من البلدات النجدية تمثل في تعليم أولي ومتقدم برغم انشغال سكانها بالبحث عن وسائل رزقهم. فأحوال أهل البادية كانت تدفعهم إلى عدم اهتمام أهلها بالتعليم كثيراً؛ لاعتماد حياتهم على التنقل والترحال طلباً للرعي والماء، لكن وبرغم ذلك فإننا نجد بينهم من كان يتعلم شيئاً من الطب الشعبي وحفظ القصائد والتاريخ والقصص الخاص بقبيلته وبعض الظواهر الطبيعية

التـي تسـاعدهم علـى معرفـة الاتجاهـات لضمـان إقامـة آمنـة لهـم ولماشـيتهم.

أمـا أهـل الحاضـرة فقـد كان لهـم نصيـب مـن التعليـم بشـقيه الأولـي والمتقـدم الـذي كان يتـم مـن خـلال الكتاتيـب سـواءً تلـك التـي يمكـن تسـميتها بكتاتيـب الأحيـاء التـي عـادة مـا تكـون ملحقـةً بمنـزل صاحبهـا أو تلـك الملحقـة بالمسـاجد. فالأولـى كانـت تُعنـى بتدريـس الطـلاب القـرآن الكريـم، وحفـظ سـوره ومبـادئ الكتابـة والقـراءة. فـي حيـن تعنـى الثانيـة بتعليـم الطـلاب إضافـة إلـى التعليـم الدينـي مـن قـراءة للقـرآن وحفـظ سـوره وتجويـده تعلـم الخـط والإمـلاء والحسـاب ومبـادئ النحـو وجـزءاً مـن السـيرة النبويـة. وكان الآبـاء خاصـة ممـن يعملـون فـي التجـارة يسـعون إلـى تعليـم أبنائهـم تلـك المهـارات للاسـتفادة منهـم فـي إدارة متاجرهـم. ومـن أبنـاء تلـك الأسـر مـن كان يواصـل تعليمـه المتقـدم مـع علمـاء الدرعيـة مثـل الشـيخ قاسـم بـن عيسـى والشـيخ عبدالوهـاب بـن عبدالله بـن عيسـى والشـيخ عبدالله بـن سـويلم، أو مـن خـلال رحـلات علميـة للتواصـل مـع علمـاء مـن خـارج الدرعيـة فـي منطقـة نجـد أو فـي مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة، وبعـض مـن سـافر لطلـب العلـم وصلـت بـه رحلاتـه إلـى الشـام والعـراق ليكـون علـى قـدر كافٍ مـن التأهيـل للعمـل فـي مجـال القضـاء والإمامـة. وكان مـا شـهدته الدرعيـة خـلال فتـرة حكـم الإمـام محمـد بـن سـعود مـن وجـود عـدد مـن العلمـاء الذيـن ذكرناهـم سـابقاً سـبباً فـي نمـو حركـة علميـة مؤثـرة فيهـا وجعلهـا أكثـر تأهيـلاً مـن بلـدات العـارض ونجـد بعامـة ولأن تكـون مركـزاً علميّـاً فـي كامـل منطقـة وسـط شـبه الجزيـرة العربيـة ومركـزاً لنشـر الدعـوة الإصلاحيـة فـي جنباتهـا وأرجائهـا كافـة.

ومـع تقـدم العمـر بالإمـام محمـد بـن سـعود وهـو يـرى دولتـه تقـوى وتـزداد رسـوخاً أعـد ابنـه عبدالعزيـز لخلافتـه حيـن كان يـوكل إليـه مهمـات عسـكرية وسياسـية بقيـادة الحمـلات العسـكرية التـي كانـت تقـوم بهـا الدرعيـة لتوحيـد البلـدات النجديـة. وبالفعـل عنـد وفـاة الإمـام محمـد فـي العـام 1179هـ/1765م خلفـه ابنـه عبدالعزيـز ليسـتكمل مشـروع والـده التأسيسـي الوحـدوي ويقـود الدولـة بـكل كفـاءة وقـدرة إداريـة وعسـكرية، لا لتوحيـد نجـد فقـط بـل مناطـق شاسـعة مـن شـبه جزيـرة العـرب.

توفـي الإمـام محمـد بـن سـعود وقـد أصبحـت دولتـه تشـمل فـي نفوذهـا جنوبـاً إلـى حايـر سـبيع عـدا الريـاض، وشـمالاً إلـى الشـعيب والمحمـل وبعـض بلـدان سـدير إلـى جلاجـل، وغربـاً إلـى ضرمـا والقويعيـة وبلـدان الوشـم مـا عـدا أشـيقر وثرمـداء . ووضـع بذلـك الأسـس الراسـخة لتأسـيس وتوحيـد دولـة عربيـة إسـلامية قويـة قامـت علـى مسـاحات كبيـرة مـن شـبه جزيـرة العـرب تمتـد مـن العـراق شـمالاً حتـى اليمـن وحضرمـوت وعمـان جنوبـاً ومـن الخليـج العربـي شـرقاً حتـى البحـر الأحمـر غربـاً وتنشـر الأمـن والاسـتقرار وتؤمـن السـير فـي طرقـات ودروب الحـج وبيـن المـدن والقـرى بمـا لـم تعرفـه شـبه جزيـرة العـرب منـذ انتقـال العاصمـة السياسـية للدولـة الإسـلامية إلـى العـراق والشـام، وهـو مـا دفـع قـوى كبـرى مثـل الدولـة العثمانيـة لمعاداتهـا والسـعي إلـى تشـويه صورتهـا بالادعـاءات والزعـم ووصفهـا بالوهابيـة والتشـدد "لأنهـا رأت فـي قيـام الدولـة السـعودية تهديـداً لوجودهـا فـي الأقاليـم العربيـة بمـا حبـا اللـه الدولـة السـعودية مـن قيـادة جعلـت العروبـة والإسـلام أسسـاً راسـخة لوجودهـا. وقـد وصـف أسـتاذ التاريـخ فـي جامعـة لنـدن بـي أم هولـت (P.M.Holt) الدولـة السـعودية الأولـى التـي أقامهـا الإمـام محمـد بـن سـعود بأنهـا: "شـكلت تحديـاً للدولـة العثمانيـة كونهـا نشـأت فـي عمـق شـبه

الجزيرة العربية وبعيداً عن نفوذها ونجاح الوهابيين (يقصد الدولة السعودية الأولى) وتأثيرهم في بث بعث حقيقي للإسلام في مناطق عدة من العالم الإسلامي".

ويصف السير هارفرد جونز بريدجز (Sir Harford Jones Brydges) الذي عاصر أحداث قيام الدولة السعودية على يد الإمام محمد بن سعود الحكومة السعودية آنذاك بقوله: "إن النظام السياسي لدى السعوديين حرى بكل ما في الكلمة من معنى. إن استعباد سكان الجزيرة العربية مستحيل، والحاكم السعودي يعرف ذلك، وقد أجبر الجميع على الخضوع لأحكام القرآن والسنة،المدنية والجنائية إضافة إلى الأحكام الدينية بكل نقائهما وصفائهما".

توحيد الدرعية بشقيها المُليبيد وغَصِيبة وبناء سور منيع لها وتولي أسرة (آل سعود) حكمها وقيادة الحملات العسكرية لتوحيد منطقة نجد وصد الحملات المعادية ضد الدرعية، وبناء مؤسسات للدولة كالقضاء، وتأمين طرق السير لقوافل التجارة والحج، واحتضان الدعوة الإصلاحية وتوفير الحماية والبيئة الآمنة لها، وتوجيه الجيوش لتوحيد نجد وبناء الحصون وبروز الأساليب الحربية وتحويل صفة الكسب نتيجة لتلك الحملات إلى مصارفه الشرعية واستبدال الإتاوة بالزكاة، وتعيين الأمراء والقضاة ورجال الحسبة، والاهتمام بالنواحي العلمية التي قام بها الإمام محمد بن سعود طوال فترة حكمه التي امتدت أربعين عاماً كانت هي الأساس القوى لما حدث في عهود خلفائه وما تحقق من إنجازات يجعله بالفعل المؤسس الحقيقي للدولة السعودية التي أصبحت اليوم في القرن الخامس عشر الهجري/ الحادي والعشرين الميلادي بعد إعادة وحدتها على يد حفيد الإمام محمد الخامس في سلسلة النسب الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن من الدول المؤثرة سياسيّاً ودينيّاً واقتصاديّاً بين دول العالم المعاصرة، ولتكون بذلك الوحدة العربية الوحيدة الناجحة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر.